التعبير اللغوي بين الشعور واللاشعور

1 — حصول ملكة اللغة :

ان الشرط الاساسى لحصول ملكة اللغة عند الانسان هو الشعور بما فى المحيط من كائنات واشياء ، وهذا التعامل مع البيئة يعد أول خطوة لتعلم اللغة . ولا بد من أن يدرك الانسان الاشياء كحقائق منفصلة عن ذاته ، يتأثر بها ، ويؤثر فيها . وعلى سبيل المثال ، فان الطفل يبدأ في تعلم اللغة حين يشعر بأناه ، أي بذاته ، وعندئذ ينظر الى ما حوله . فيعتبر كل شيء مما يراه أو يسمعه مشكلة تتطلب الحل ، ويأخذ فى تمييزها عن غيرها بجملة من الصفات ، ويحاول — على غرار الكبار — ان يطلق عليها الاسم الذى اصطلح عليه الناس . ولئن كان التفكير كلاما داخليا يختلج فى الذهن ، فان « بنات الفكر » ، كما يقول العرب ، لا تنكشف للغير الا بواسطة اللغة، أى ان مضمون الفكر يبرز الى حيز الوجود حين ينطلق اللسان ، ويخط القلم .

2 — الوعى والشعور :

على أن الانسان لا يعى مما حوله كل شيء . . . فمن الاشياء ما لا تدركه الحواس ، ومن الامور ما لا تفطن له الاسماع والابصار . وفى الواقع ان الشعور مقصور على الاشياء التى نعيرها انتباهنا . فهى موضوع أحاديثنا وسائر ما يصدر عنا من كلام . وماعدا ذلك من الأشياء والامور التى لا تحصى ، فهى تشكل منطقة واسعة هى منطقة اللاشعور . وهذه المنطقة ، وان كنا لا نتحدث عما فيها ، لأنها غائبة عن الوعي ، ولاننا مشغولون عنها باهتماماتنا الحاضرة ، الا أنها تظل مع ذلك موضوع تفكيرنا . ومعنى ذلك أن مضمون الفكر أوسع من مضمون اللغة ، وانه لا ينكشف عن طريق اللغة من « بنات الفكر » الا القليل . وهذا يعود كما قلنا الى أن الفكر المسبوك سبكا لغويا محصور فى نطاق الشعور ، أى أنه مقصور على ما ندركه ونحس به من عالم الموجودات .

وبعبارة مختصرة ، فان موضوع التفكير يشتمل على ما نشعر به ، وكذلك على ما يختبىء تحت الشعور المباشر . أما اللغة ، فموضوعها فى الغالب مقصور على ما يدور فى الذهن مما نعيه وعيا مباشرا . والدليل على ذلك أن التعبير اللغوى يزداد صعوبة كلما أراد الانسان أن يعرب عما لا يشعر به بصورة مباشرة ، وما لا يقع تحت حواسه . ولقد تبلغ هذه الصعوبة درجة تجعل الانسان عاجزا عن التعبير بالرموز اللغوية . وحينئذ يضطر الى استعمال طريقة أخرى من طرق الفنون التعبيرية ، كالموسيقى أو الرسم أو الرقص أو الشعر ، وهى طرق تعتمد على القيم الجمالية . وكأنى بالفنانين يحاولون أن يعبروا عما لا يمكن التعبير عنه ، وكأنى بهم ، اذ يكشفون عن عواطفهم الرقيقة وخلجات أفكارهم ، يرتفعون عن عالمنا الفانى ، لكى يطلوا من نافذة الشعر أو النغم على عالم الأبدية .

3 — مدرسة التحليل النفسي واللاشعور :

ان مدرسة التحليل النفسي حاولت أن تلقي بعض الأضواء على منطقة اللاشعور ، أي على كل ما رسب تحت الشعور ، وعلى الاحساسات التي لا نشعر بها الا بصورة غامضة ، ولا نعرف لها سببا واضحا ، ولا ندري كيف نعبر عنها . ومما يجعل الانسان عاجزا عن التعبير عنها ، كونها راجعة الى عهد الطفولة ، أي الى الفترة التي لا تزال فيها آليات اللغة في طور التكون والتحسن المستمر . وهنا أيضا نجد ان الانتقال من اللاشعور الى الشعور لا يتم الا عن طريق البوح والتصريح ، أي أنه لا بد من أن تصاغ تلك العواطف التي رسبت وانتقلت من منطقة الشعور الى منطقة اللاشعور بسبب الكبت أو الحرمان أو الضغط ، لا بد من أن تصاغ تلك العواطف في كلام يدرك منه السامع المراد . وليس معنى ذلك أن الكلام صورة صادقة عما يجول في أعماق الذهن ، لأن الاهتمامات الحاضرة أو المصلحة الشخصية تتدخل أثناء الكلام ، فتزيف المراد ، أو تقنعه بأقنعة تختفي وراءها سريرة الانسان . وكثيرا ما يستدل السامع على النوايا المخبأة ، بفلتات اللسان ، أو بغير ذلك من الأمارات الملحوظة في السلوك .

على أنه ، اذا خفت ضوابط الوعي ، وتناقصت سيطرة العقل على الحياة الواعية ، كما هو الامر في أحلام النوم واليقظة ، وفي حالات شرود الذهن ، فان سريرة الانسان كثيرا ماتنكشف لغة وتبرز كلاما . ومن هنا ندرك أهمية تحليل الاحلام ، وفائدة استعمال التحليل التخديري narcoanalyse . . . على أنه ليس من السهل فهم المقصود من تلك الفلتات التي يبعث بها عالم اللاشعور ، خاصة ان الطبيب النفسي والمفحوص (Sujet) ، لا يصدر كل منهما في أحكامه واجتهاده لفهم المقصود منها ، الا على اساس حياتهما الواعية . . . أي أن كلا منهما لا بد أولا من أن يحول فحوى تلك الاحلام الى كلام مفهوم ، فاذا أراد أن يدرسها ،فلن يدرس الاحلام بصورة مباشرة ، بل سيحلل الأحلام كما يستشفها من وراء قوالب الالفاظ ، وكما يتلمحها من خلال ضباب التراكيب اللغوية .

ولئن كانت المشاكل والعقد والاهتمامات المتأزمة والاسرار المخبأة في اللاشعور تحاول كلها في حالات معينة من الارتخاء أن تفلت من محبسها وأن تنسبك في قوالب اللغة ، وأن تترك فيها أثرا يدل عليها ، فان اللغة هي بدورها تؤثر في عالم اللاشعور . . . فمن المعروف أن الاقناع والايحاء لهما أثر كبير في المرضى بالهستيريا ، سواء بقصد احداث الاضطرابات النفسية أو بقصد معالجتها . والايحاء بواسطة الكلام أكثر ما يكون فعالية ، في الحالات التي هي بين النوم واليقظة ، حيث تصبح الحدود بين منطقتي الشعور واللاشعور متقاربة أو متداخلة . على أن الايحاء اللغوي لا يحدث استجابات نفسية فحسب ، بل يحدث كذلك منعكسات عضوية reflexes فمن المعروف مثلا ان الايحاء بالكلام يكفي أحيانا للقضاء على بعض العيوب العضوية كالثآليل (جمع ثؤلول Verrue) . وانك اذا أوحيت الى انسان وأقنعته أنه أصيب بحروق ، فمن المحتمل أن تظهر عليه فقاعات Cloques . وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن الكلمة لا تمارس تأثيرها على الفاعلية العقلية الواعية فحسب ، بل يظهر لها أثر حتى في المنطقة غير الواعية من الحياة العقلية . والواقع أن الطب النفسي الجسدي médecine psychosomatique قد برهن على أن المعالجة لا تكون مجدية اذا اقتصرت على العضو المريض ، وانه لا بد من أن يأخذ الطبيب بعين الاعتبار كون العضو يتأثر بالعقل ، وبالحالة النفسية وبالكلام .

وعلى هذا ، فالتعبير اللغوى مرتبط ارتباطا وثيقا بالوعى التام . فعلى قدر ما يعى الانسان الأشياء يكون أقدر على الافصاح عنها . أما الأمور التى لا يقوى على الاعراب عنها فهي لا تشهد عالم النور . ولا يتمخض عنها العقل ، بل تظل راسبة رسوبا مرضيا ، فاما أن تعبر عن نفسها تعبيرا عضويا مرضيا ، واما أن تبرز على شكل اختلالات عقلية من نوع الاصابة بالعصاب névrose

4 ــ الوحى والالهــام على ضوء هذه النظــرية :

ولا ينبغى أن يفهم من هذا ان ميدان اللغة مقصور تماما على عالم الوعى ، لأن التكلم فى الواقع عبارة عن سلسلة من الآليات التلقائية التى لا يستلزم القيام بهــا يقظة الوعي ولا حضور الذهن . فقد أتكلم ولا أعير أي انتباه لاليات التلفظ articulation المعقدة ، كما أننى قد أتحدث بدون أن أعى ما أقول ، منساقا فى ذلك وراء ما تعودته من تعبير . وبالاضافة الى ذلك فان الأفكار والمعانى الواردة على السنة الناس وأقلام الكتاب لا ترجع كلها الى عالم الشعور . بل ان بعضها قد وجد منفذا من عالم اللاشعور ليخرج الى عالم التعبير . وفى الحقيقة أن منطقة اللاشعور لا تفتأ ترسل اشارات تنم عن وجودها . ومن جملة تلك الاشارات ، الافكار التى تخطر ببالنا فجأة وفى حالات أشبه ما تكون بالوحى والالهام . (والشعراء والكتاب أعرف الناس بهذه الحالات) . فاللاشعور اذن مرتع خصب لا ينى يرفد حياتنا الواعية ويتدخل فيها ويؤثر فيها . ولا ادل على ذلك من أنك قد تقرأ الدرس فى النهار بضع مرات ، فاذا مضت ليلة ، ستجد أنه قد علق بالذهن ، مما يبرهن على أن آليات الحفظ واصلت عملها لاشعوريا .

ان النقطة الاساسية بالنسبة الى شعور الانسان هى أنه منعكس على الذات . انه الشعور بالأنا ، وهذا يعنى أن الانسان قادر على أن ينفصل عن أفكاره ، وأن يتخذها هى بالذات ، موضوعا للدرس والتحليل . فهو يستطيع أن يوجه أفكاره كما يشاء ، على ضوء تجاربه فى الماضى ، واهتماماته فى الحاضر ، ومراميه فى المستقبل فنحن اذن كبشر ، لا نتميز على الحيوان بقدرتنا على النطق والتكلم فقط ، بل كذلك بقدرتنا على ادارك واقع حالنا ، وتصورنا للوضع الذى نحن فيه ، وشعورنا بما فيه وبمن فيه . . . ونشير مرة أخرى الى أن الطفل لا تستقيم لغته الا عندما يشعــر بأناه كذات وكموضوع فى نفس الوقت .

وعلى ذلك فان السلوك اللغوى يتلقى روافده ومواده الاولية اذا صح التعبير ، أولا من منطقة الشعور ، عندما تتفتح الأنا كذات فاعلة ومنفعلة . . . كمــا أنه من جهة أخرى يتلقى اشارات وتوجيهات من منطقة اللاشعور . وهكذا يتكون الوجدان من توارد المعلومات والاشارات من منطقتى الشعور واللاشعور . .

ولئن كان الانسان فى تصريفه للشؤون اليومية العادية يكتفى بالاستماع الى صوت شعوره المباشر ، فانه ، عند الملمات ، وعندما يضطر لاتخاذ قرار هام ، لا يعتمــد على ذلك الصوت وحده ، بل يظل يحادث نفسه ، ويقلب وجوه الرأي مع ذاته ، ويصغى الى ذلك الصوت الذى نسميه تارة بالضمير وتارة بالوجدان .

ان الدراسات حول الاختلالات النفسية تحوم كلها حول أشكال انحراف الأنا . واكثر ما يحدث ذلك حين يفقــد الانسان السيطرة على شعوره وعلى عقــله ، ويخفت ذلك الصوت الذي يتعالى من أعماق الوجدان ، فتطغى عليه الوساوس والاهتمامات الدنيــوية .

وهكذا يتبين لنا أن كل نظرية لها علاقة بالتعبير اللغوى وبفنون الادب ، لا يمكن أن تعتمد كنظرية صحيحة الا اذا استندت على ما أصبح اليوم متوفرا من معلومات عن الشعور واللاشعور . ومصداق ذلك أن نظريات فرويد Freud وجدت مجالا واسعا للتطبيق فى الأدب والنقد ، مما شجع بعض الباحثين على وضع أسس علم سموه « سيكولوجية الأدب » . ومما دعا كذلك بعض الأدباء الى انتهاج اسلوب فى القصة لم يكن معروفا ، وهو أسلوب القصة أو الرواية النفسية .

5 — علاقة الفن بالجنون :

وقد أثيرت مشكلة علاقة الفنون التعبيرية بالجنون ، لدى دراسة الآثار التي ينتجها الفصاميون . وعلى سبيل المثال ، فان فنون الأدب قد وفرت بين أيدينا كثيرا من النماذج التى تمخضت عنها عقول الفصاميين . ومن علامات الفصام Schizophrénie شعور المريض بأنه مقطوع عن العالم الخارجى ، وانكماشه داخل عالمه الخاص . ومن هنا التسمية بالفصام ، أى أنه مقطوع عن مجموع القيم التى يؤمن بها عامة الناس ، فهو بينها كالغريب الذى أنقطعت به السبل . وبما أن اللغة تظل رغم استلاب عقله aliénation ، هى صلة الوصل بينه وبين المجتمع ، فمن المتوقع أن ينالها على لسانه وفى كلامه ، غير قليل من التغيير . فهو يحاول أن ينشىء لغة جديدة تقوم على الحذف أحيانا وعلى الابتداع أحيانا أخرى . أما قواعد النحو والصرف فيضرب بها عرض الحائط ، ويستعمل الأسلوب المختصر المجحف بالمعنى (أسلوب البرقيات) ، ويرصف الكلمات رصفا بدون رباط ، ولا يراعى رتبة الكلمة من حيث التقديم أو التأخير أو التوسط . وتراه أحيانا يورد النعوت بدون مبرر ، ويستعمل كلمة لا لشىء سوى لأنها تؤلف سجعا مع كلمة أخرى ، ويتعنت فى التلفظ بكلمة طويلة صعبة ، ولاينى يكرر فى اصرار بعض المفردات أو التعابير كأنها تشكل فيما بينها حلقة لايستطيع التخلص منها .

واذا نظرنا الى آثارهم الأدبية فاننا نجد كثيرا من الصور المعبرة عن الرمزية ، وهي صور غريبة أشبه ما تكون بما يراه الحالم من مشاهد . على أن الفصامي يضحى بالمعنى وبالقواعد ، فى سبيل الجرس الموسيقى والايقاع السمعى . ولذلك فهو لا يتردد فى بتر بعض الحروف عن الكلمات ، والصاق أخرى بها ، وتركيب مفردات تركيبا مزجيا بحيث يأخذ شقا من كلمة وشقا من كلمة أخرى ، وكل ذلك من أجل احداث الأثر السمعى المطلوب . ومن الفصاميين من يتعلق بحرف معين ، فيضيفه تكلما وكتابة وقراءة الى جميع المفردات . وقد تنفر نفسه من حرف آخر ، فيتحاشاه ويحذفه أينما صادفه .

ان بعض الآثار الأدبية التى خلفها الفصاميون هى أشبه ما تكون بالأدب السريالى Surréaliste . كما أنك قد تقرأ قصيدة من الأدب السريالى ، فلا تملك نفسك من الشعور بأن مثل تلك الأبيات من الشعر لا يتفتق عنها الا عقل مجنون . وهذه المسألة تثير مشكلة علاقة الفن بالجنون . فالشاعر شخص يرى ما لا يراه الناس ، والموسيقار انسان يدرك من عالم النغم ما لا يدركه العامة . وبعبارة مختصرة ، فالفنان له عين لا كالعيون وأذن لا كالآذان ، فهو سريالى ، أى أنه مخلوق خارق للعادة من حيث امكانياته النفسية وادراكاته الحسية . ان قدميه تشدانه الى العالم الفانى ، وحاسته السادسة تسمو به الى عالم الأبدية . فهو قادر بحاسته تلك أن يرى

من وراء الحجب وان يطل على عالـــم لا سبيل الى مشاهدته بالنسبـــة الى عامة الناس . . . كما أنه أقدر الكائنات على تلقى الاشارات التى تنبعث من اللاشعور . ولذلك ترانا نقول عنه بأنه ملهم ، أى نزل عليه الوحى والالهام ، وسمع تلك الأصوات الخفية التى تمنعنا مشاغلنا وأمور دنيانا من سماعها . ولكن . . . أتـــرانا نفهمه حين يحدثنا عن تلك العوالم الغريبة والمشاهد العجيبة ؟ أترانا نصدقه أم نكذبه ؟ أنعده سويا كأى واحد منا ، أم عبقريا متفوقا علينا ، أم مجنونا يهذى بما يقول ؟ هل نعتبره نبيا كذابا على نحو ما جرى لأبى الطيب المتنبى ، أم نلتمس له الأعذار على غرار ما فعل أحدهم فى رثاء أبى الطيب :

هـــو في شعـــره نبي ولـــكن ظهـــرت معجزاته في المعـــاني

تلك هى اذن مشكلة علاقة الفن بالجنون . وفى الواقع ان كل فنان يمكن أن يكون مفصوما ، أى مقطوعا عن عالم الناس ، متطلعا دائما الى الأعلى مستلهما فنه من قمم الوحى ، ولكنه سيظل مع ذلك شخصا سويا اذا وضع نفسه فى حالة الفصام تلك ، عن ارادة واختيار .

6 ــ الانفصـــام والابداع الفنى :

ان المشكلة اذن تدور حول تحديد الخط الذى يفصل بين الشخصية السويـــة والشخصية غير السوية . فلقد تجد من الكتاب من لا يجدد ولا يحب التجديد ، ويحافظ كما يقال على « عمود الشعر » . . . وما من شك أن هذا الـكاتب سوي بأتم معنى الكلمة . ولكن ، الى جانب هذه الفئة من الأدباء ، قد تجد من يحب المغامرة فى أجواء الأدب ، ويجازف بنفسه وبسمعته فى دروب لم تطأها أقدام شاعر من قبل ، اعتقادا منه بأن الأديب الذى يكتفى بالتقاط صورة فوتوغرافية للواقع ، يهمل جـــزءا كبيرا من ذلك الواقع . أيصح أن يقال عن مثل هذا الكاتب المغامر بأنه غير سوى ؟ الحقيقة أن الجواب ليس سهلا . وذلك أن الفنان السريالى ، أو المجدد على وجه العموم ، يبحث عن لغة أخرى وأسلوب آخر غير الذى أعتاده الناس ، للتعبير عما يحس به ، لأنه متيقن أن لغة الناس عاجزة عن أن تنقل أحاسيسه . . . ولكـــن ، أليس هذا بالضبط ما يفعله الفصامى حين يرفض اللغة المشتركة ويتنكر لها ؟ . . . أضف الى ذلك أن الفنان والفصامى ، كل منهما يصدر فى أحاسيسه وأفكاره عن اللاشعور . ولئن كان الناس يعتبرون ما يصدر عن الفنان انتاجا وابداعا ، وما يصدر عن الفصامى هذرا ولغوا ، فان هذا لا يمنع من القول بوجود كثير من السمات المشتركة بينهما ، من حيث نمط التفكير وأساليب التعبير . والحقيقة أنه لا توجد حدود واضحة تفصل الواحد منهما عن الآخر ، بل هناك منطقة مشتركة بينهما ، حتى انك لتجد أحيانا فى كلام العقلاء أو المثقفين أشياء لا تصدر الا عن المجانين أو البدائيين . فالمسألة اذن متعلقة بالارادة . فالأديب السريالى فصامى ، ولكنه فصام عن حرية واختيار . وبهذا الاعتبار فلا يعد مريضا . لقد أراد أن ينفصم عن الناس لا لكى يبقى وحده فى برجه العاجى وينشىء قيمه الخاصة ويجتر أفكاره ، بل لكى يؤدى رسالة الفن كما يرتئيها ، لـــكي يجرب طرقا جديدة فى التعبير . أما الفصامي المريض ، فهو مقطوع عن الناس ، ومتنكر لما أنشأه الناس من مؤسسات ، وخاصة منها اللغة . انه يرفض اللغة كمؤسسة اجتماعية ، ولذلك فهو يحاول أن يخربها بالحذف والقلب والبتر والغموض وما الى ذلك من الوسائل . وهو اذ يفعل كل ذلك لا يصدر عن ارادة واختيار ، بل هو مكره ، لأنه لا يسيطر على نفسه ، ولا يشعر بواقع حاله .

د . حنفى بن عيسى

الخـــلاصـــة

ان التفاعل بين المتكلم والمحيط هو المرحلة الاولى فى عملية اكتساب اللغة . وينبغى كذلك أن يدرك الانسان الكائنات والاشياء كحقائق منفصلة عن ذاته . ولكن الانسان لا يستطيع أن يدرك كل شىء . والحقيقة أن الادراك يقتصر على الاشياء التى نعيرها اهتمامنا ، أما الافكار الراسبة فى أعماق اللاشعور ، فاحتمالات ظهورها فى سلوكنا اللغوى قليلة . ومما يؤكد هذا أن التعبير يزداد صعوبة عندما نحاول أن نتحدث عمـــا له علاقة بعالم اللاشعور ، وهذا هو السبب فى أننا نستعين فى مثل تلك الحالات بطرق أخرى فى التعبير ، كالموسيقى والرسم الخ . . .

ويتناول الموضوع كذلك التفاعل بين اللاشعور واللغة ، والعلاقة بين مختلف اشكال التعبير والجنون .

RESUME

Langage, Conscient et Inconscient

L'intéraction qui s'exerce entre le sujet parlant et le milieu est la première étape dans le processus d'acquisition du langage. Il faut en outre que l'individu puisse percevoir les êtres et les choses comme des entités indépendantes de sa personne. Mais l'homme ne peut pas tout percevoir. En réalité, la perception se limite aux choses auxquelles on prête attention, et les pensées refoulées au fond de nous-mêmes ont peu de chance d'apparaître dans notre comportement linguistique. Ceci est d'autant plus vrai que l'expression s'avère plus difficile quand on essaie de parler de tout ce qui a trait au vaste domaine de l'inconscient, ce qui nous oblige à avoir recours à d'autres moyens d'expression tels que la musique, la peinture etc....

La question de l'influence réciproque que peuvent avoir l'un sur l'autre, l'inconscient et le langage, a également été abordée, ainsi que la relation qui peut exister entre les divers modes d'expression et l'aliénation mentale.

SUMMARY

Language, consciousness and unconscious

Interaction between a speaker and the environment is the first stage in the process of acquiring language. Moreover it is necessary that the individual might perceive beings and things as entities independent from himself. However, Man cannot perceive everything. Actually, perception is limited to things which draw our attention. As for the thoughts which are drawn back into the unconscious, they have few chances to appear in our linguistic behaviour. That is the truer as expression gets more difficult as we attempt to speak of everything dealing with the large field of our unconscious world and it is the reason why we appeal to other means of expression, such as music, painting, etc..

It is also dealt with the possibility of reciprocal influence of unconscious and language, and the possible relationship between the various types of expression and insanity.

BIBLIOGRAPHIE

1. - CHAUCHARD P., *Le langage et la pensée*, Paris 1958.

2. - FREUD S., *Essais de psychanalyse*, Paris 1951.

3. - FREUD S., *La naissance de la psychanalyse*, Paris 1956.

4. - FREUD S., *Introduction à la psychanalyse*, Paris 1956.

5. - LHERMITTE J., *Les mécanismes du cerveau*, Paris 1938.

6. - MILLER G. A., *Language and communication*, 1951.

7. - PENFIELD and RASMUSSEN, *The cerebral cortex of man*, New York, 1950.

8. - PIAGET J., *Le langage et la pensée*, Paris et Neuchatel 1948.